

حلاوة طعم الإيمان

أما بعد:

فيا أيها الناس، أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل فتقواه خير زاد، وهي نعم العدة ليوم المعاد.

أيها المسلمون، يجد المتبصر في أمور الحياة وشؤون الأحياء يجد فئات من الناس تعيش ألواناً من التعب والشقاء، وتنفت صدورها أنواعاً من الضجر والشكوى، ضجر وشقاء يعصف بالأمان والاطمئنان، ويفقد الراحة والسعادة، ويتلاشى معه الرضى والسكينة. نفوس منغمسة في أضغانها وأحقادها وبؤسها وأنانيتها، ويعود المتبصر كرة أخرى ليرى فئات من الناس أخرى قد نعمت بهنيء العيش وفيوض الخير، كريمة على نفسها، كريمة على الناس، طيبة القلب سليمة الصدر طليقة المحيا. ما الذي فرق بين هذين الفريقين؟ وما الذي باعد بين هاتين الفئتين؟ إنه الإيمان وحلاوة الإيمان. ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً)) [1][1]. بذلك أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام كما أخبر أن ((ثلاثاً من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) [2][2].

أيها الإخوة، للإيمان طعم يفوق كل الطعوم، وله مذاق يعلو على كل مذاق. ونشوة دونها كل نشوة.

حلاوة الإيمان حلاوة داخلية في نفس رضية وسكينة قلبية تسري سريان الماء في العود، وتجري جريان الدماء في العروق.

لا أرق ولا قلق ولا ضيق ولا تضيق، بل سعة ورحمة، ورضى ونعمة: ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً [النساء:70]. وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديد:12].

الإيمان بالله هو سكينة النفس، وهداية القلب، وهو منار السالكين وأمل اليائسين، إنه أمان الخائفين ونصرة المجاهدين. وهو بشرى المتقين ومنحة المحرومين. الإيمان هو أب الأمل وأخ الشجاعة وقرين الرجاء. إنه ثقة النفس ومجد الأمة وروح الشعوب.

وأول منافذ الوصول إلى حلاوة الإيمان وطعم السعادة الرضى بالله عز وتبارك رباً مدبراً فهو القائم على كل نفس بما كسبت، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، قيوم

السموات والأرضين، خالق الموت والحياة والأكوان. مسبغ النعم، مجيب المضطر إذا دعاه وكاشف السوء. أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، سوى الإنسان ونفخ فيه من روحه، أطعمه من جوع، وكساه من عري، وآمنه من خوف، وهداه من الضلالة، وعلمه من بعد جهالة.

إيمان بالله تستسلم معه النفس لربها، وتنزع إلى مرضاته، تتجرد عن أهوائها ورغباتها، تعبد سبحانه وترجوه، تخافه وتتبتل إليه، بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، رضى بالله ويقين يدفع العبد إلى أن يمد يديه متضرعاً مخلصاً: ((اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) [3][3].

ومذاق الحلاوة الثاني — أيها الإخوة —: الرضى بالإسلام ديناً، دين من عند الله أنزله على رسوله ورضيه لعباده ولا يقبل ديناً سواه.

اسمعوا إلى هذا التجسيد العجيب للرضى بدين الله؛ غضب عمر بن الخطاب رضى الله عنه على زوجته عاتكة فقال لها: والله لأسوأك. فقالت له: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله إليه؟ فقال: لا. فقالت: أي شيء يسوعني إذن؟! الله أكبر... إنها واثقة مطمئنة راضية مستكينة مادام دينها محفوظاً عليها حتى ولو صب البلاء عليها صباً.

بل إن إزهاق الروح مستطاب في سبيل الله على أي جنب كان في الله المصروع. الإسلام منبع الرضاء والضياء، ومصدر السعادة والاهتداء.

ومذاق الحلاوة الإيمانية الثالث: الرضى بمحمد رسولاً ونبياً. محمد الناصح الأمين، والرحمة المهداة، والأسوة الحسنة، فلا ينازعه بشر في طاعة، ولا يزاخمه أحد في حكم: **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ [النساء:65]**.

الرضى بمحمد اهتداءً واقتداءً. وبسنته استضاءةً وعملاً.

أيها الإخوة، إذا صح الإيمان ووقر في القلب فاض على الحياة، فإذا مشى المؤمن على الأرض مشى سوياً، وإذا سار سار تقياً، ريحانة طيبة الشذى، وشامة ساطعة الضياء. حركاته وسكناته إيمانية مستكينة: ((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألتني ل أعطينه، ولئن استعازني لأعينه)) [4][4].

من ذاق حلاوة الإيمان طاب عيشه، وعرف طريقه، ومن عرف طريقه سار على بصيرة، ومن سار على بصيرة نال الرضى وبلغ المقصد. نعم يمضي في سبيله لا

بيالي بما يلقي، فبصره وفكره متعلق بما هو أسمى وأبقى يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
أُرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً [الفجر: 27، 28]. أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ [الزمر: 22].

هل رأيت — رحمك الله — زياً ومنظراً أحسن وأجمل من سمّت الصالحين؟!!

وهل رأيت — وفقك الله — تعباً نصباً ألد من نعاس المتجهدين؟!!

وهل شاهدت — حفظك الله — ماءً صافياً أرق وأصفى من دموع النادمين على
تقصيرهم والمتأسفين؟!!

وهل رأيت — رعاك الله — تواضعاً وخضوعاً أحسن من انحناء الراكعين وجباه
الساجدين؟!!

وهل رأيت — عافاك الله — جنة في الدنيا أمتع وأطيب من جنة المؤمن وهو في
محراب المتعبدين؟! إنه ظمأ الهواجر ومجافاة المضاجع... فيالذة عيش المستأنسين.

هذه حلاوتهم في التعبد التحنث.

أما حلاوتهم في سبح الدنيا وكدها وكدها. فتلك عندهم حلاوة إيمانية تملأ الجوانح
بأقدار الله في الحياة. اطمئنان بما تجري به المقادير، رضى يسكن في الخواطر فيقبل
المؤمن على دنياه مطمئناً هانئاً سعيداً رضى. مهما اختلفت عليه الظروف وتقلبت به
الأحوال والصروف. لا ييأس على ما فات ولا يفرح بطراً بما حصل. إيمان ورضى
مقرون بتوكل وثبات، يعتبر بما مضى ويحتاط للمستقبل ويأخذ بالأسباب، لا يتسخط
على قضاء الله، ولا يتقاعس عن العمل، يستفرغ جهده من غير قلق، شعاره ودثاره:
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود: 88].

موقن أن ((ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)) [5][5]. لو اجتمع
أهل الأرض والسموات على نفعه بغير ما كتب له فلن يستطيعوا، ولو اجتمعوا على
منعه عما قدر له فلن يبلغوا. لا يهلك نفسه تحسراً، ولا يستسلم للخيبة والخذلان. معاذ
الله أن يتلمس الطمأنينة في القعود والذلة والتخاذل والكسل، بل كل مسارات الحياة
ومسالكها عنده عمل وبلاء، وخير وعدل، وميدان شريف للمسابقات الشريفة. جهاد
ومجاهدة في رباطة جأش، وتوكل وصبر. ظروف الحياة وابتلاءاتها لا تكدر له
صفاءً ولا تزعزع له صبراً ((عجبا لأمر المؤمن أمره كله خير؛ إن أصابته سراء شكر
فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، ولا يكون ذلك إلا
لمؤمن)) [6][6].

بالإيمان الراسخ يتحرر المؤمن من الخوف والجبن والجزع والضجر قل لئن يُصِيبَنَا
إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [التوبة:51].

((لا مانع لما أعطى ربنا، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد)) [7][7].

وَرَبِّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ [الإسراء:30].

حلاوة ورضاً تقوم في حياة الكفاح على هذه الأصول والمبادئ؛ إذا أعطي تقبل
وشكر، وإذا منع رضي وصبر، وإذا أمر ائتمر، إذا نهى ازدجر، وإذا أذنب استغفر.

بهذا الإيمان وبهذا المذاق ينفك المؤمن من ربة الهوى، ونزعات النفس الأمارة
بالسوء وهمزات الشياطين وفتن الدنيا بنسائها ومالها وقناطرها ومراكبها وسائر
مشتهياتها وزينتها، سعادة وحلاوة ملؤها القناعة. سعادة وحلاوة يتباعد بها عن الشح
والتقتير والبخل والإمساك، وينطلق في معاني الكرم والإيثار والعطاء.

إن في حلاوة الإيمان ترطيباً لجفاف المادة الطاغية، وحداً من غلواء الجشع والجزع،
وغرساً لخلال البر والمرحمة. ومن ثم تنزل السكينة على القلوب، وتغشى الرحمة
النفوس: أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ
[البقرة:157].

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ [المجادلة:22].

فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [طه:123].

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل:97].

أيها المسلمون، من ضعف إيمانه يضج من البلاء؛ لأنه لا يعرف المبتلي، ويخاف
السفر؛ لأنه لا زاد له، ويضل الطريق؛ لأنه لا دليل معه.

فيالخرارة المستوحشين: قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ [الزمر:22].

من فقد الإيمان انفرط أمره وانحل عقده، يقول ويفعل من غير رقيب، ويسير في دنياه
من غير حسيب، سيرته مطبوعة بطابع الأثرة والأنانية. معدوم الثقة بنفسه وبالناس
يحل التدابر عنده محل التراحم، التفرق محل التعاون.

بغير الإيمان وحلاوة الإيمان يعود الناس وحوشاً ضارية، يقطعون حبالهم مع الله ومع
الناس، انقادوا لنفوسهم الأمارة بالسوء، واجتالتهم شياطين الجن والإنس.

والحضارة المعاصرة بمادياتها المغرقة وتقنياتها الجافة خير شاهد على أن السعادة والحلاوة لا تحققها شهوات الدنيا ولا مادياتها، لا ترى المرء فيهم إلا منهوماً لا يشبع، شهواته مستعرة ورغباته متشعبة، يجره الحرص على الخصام فيشقى ويشقى، ويغرس العداوة والعدوان حيثما حل وارتحل.

لقد أورتهم حياتهم هذه أمراضاً نفسية، واضطرابات إجتماعية، وتقلبات فكرية، كان مفزعهم إلى المخدرات والمهدئات والعيادات النفسية والعلاجات العصبية وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى [طه:124]. وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَثْمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام:125].

ألا فاتقوا الله — رحمكم الله —، وآمنوا بربكم، وأطيعوا رسولكم، واستمسكوا بدينكم (رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً ونبياً).